

المدن والتمدن في الصحراء الكبرى قديما: دراسة حالة عاصمة شعب الغرامنت "مدينة غرمة".

~~~~~ د. بن عطيا الله عبد الرحمان \*†

**مقدمة:** الغرامنت شعب من شعوب الصحراء القديمة وردت أخبارهم كثيرا في المصادر اليونانية والرومانية؛ فأول مصدر أشار إليهم هو هيروودوت المؤرخ اليوناني من القرن الخامس قبل الميلاد، والذي حدد موقعهم على بعد عشرة أيام من واحة أو جيلا، فذكر أن بلادهم فيها نخل كثير، ووصف أسلوبهم في الزراعة وممارستهم لحرفة الرعي، ومن خلال هذه المعلومات التي أوردها هيروودوت يمكننا معرفة بعض ملامح حياة الغرامنت في القرن الخامس قبل الميلاد من حيث أن نمط حياتهم يندرج ضمن أشباه البدو الذين جمعوا بين حياة الزراعة التي تتطلب الاستقرار والرعي الذي يتطلب التنقل بحثا عن الكأ والماء. (1).

والغرامنت عند هيروودوت هم لبيون يسكنون في البقاع الشمالية من إفريقيا ويجاورون الأثيوبيين حيث أن الغرامنت توسعوا على حساب الأثيوبيين بفضل عرباتهم التي تجرها أربعة أحصنة. (2)

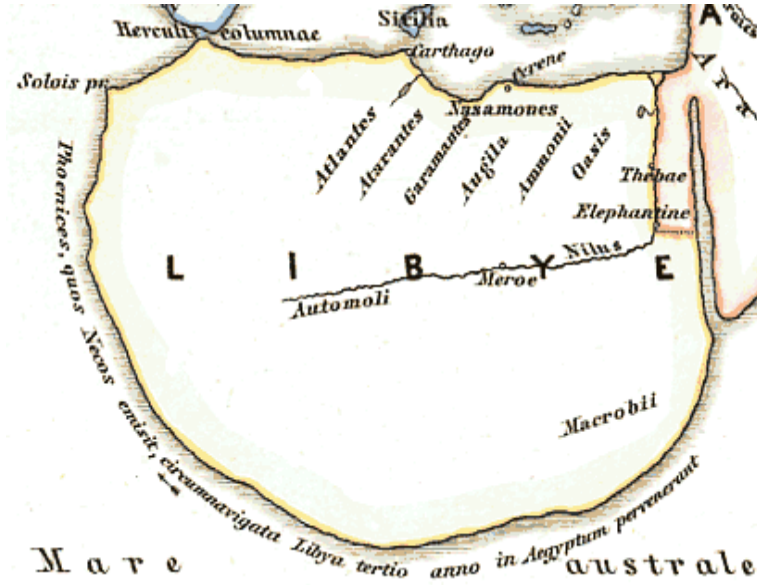
أشار سترابون - الجغرافي اليوناني من القرن الأول قبل الميلاد - بطريقة مبهمة إلى وجود الغرامنت بالقرب من خليج السرت؛ فهم يتموقعون بين الجيتوليين في الشمال والأثيوبيين في الجنوب (3)، وتحدث بلين القديم عن حملة القائد الروماني كرونليوس بالبيوس إلى بلاد الغرامنت في القرن الأول قبل الميلاد واحتلاله لعاصمتهم غرمة. (4)

من خلال هذه المصادر نستنتج أن الغرامنت عاشوا في أقصى صحراء المغرب القديم، وبالتالي كانوا يشكلون جزءا أساسيا من شعوب الصحراء الكبرى قديما، أما عاصمتهم مدينة غرمة فموقعها الحالي في الجنوب الليبي على بعد 80 كلم من مدينة مرزوق الحالية. (5)

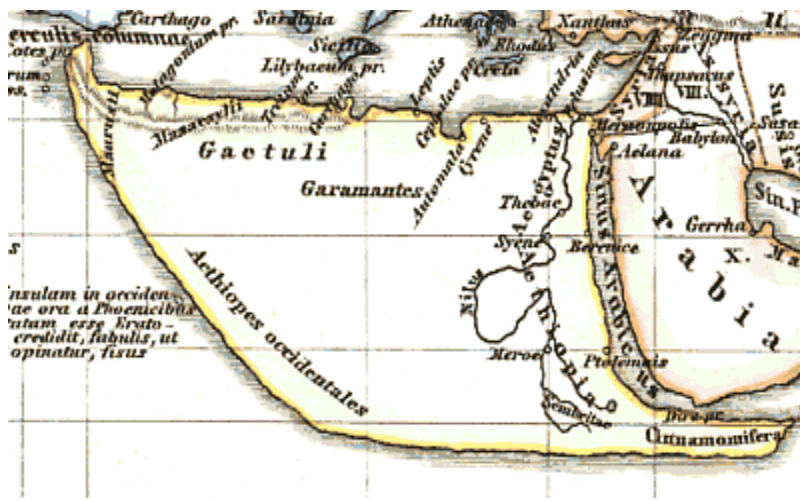
وقد فرقت المصادر الرومانية بين الغرامنت والجيتول على عكس المصادر اليونانية، رغم أنهما من جنس واحد لكنهم عاشوا منفصلين جغرافيا وحتى معيشتهم تختلف، فالجيتول كانوا أكثر بدائيين ومعيشتهم فردية وانعزالية، ولا تذكرهم كثيرا المصادر القديمة مقارنة بالغرامنت المتحضرين ومعيشتهم جماعية عاشوا في المدن وكان لهم نظام حكم ملكي مما يدل على تطور التنظيم السياسي عندهم (6)،

\* - أستاذ محاضر في تاريخ الحضارات القديمة - قسم التاريخ - جامعة تبسة.

كما أن الغرامنت تواصلوا مع الشعوب الأخرى، حيث مارسوا تجارة العبور مع الفنيقيين منذ القرن التاسع قبل الميلاد، كما أن الرومان وجهوا حملات عديدة إلى بلاد الغرامنت بهدف الاستيلاء على تجارتهم وهذا الاتصال بين الغرامنت والشعوب الأخرى هو الذي ساهم في ثراء بلادهم وقيام مدن في الصحراء الكبرى. (7)



خريطة توضح مكان تواجد شعب الغرامنت حسب المؤرخ اليوناني هيرودوت



خريطة توضح مكان تواجد شعب الغرامنت حسب الجغرافي اليوناني سترابون

1- موقع مدينة غرمة عاصمة الغرامنت القديمة: تسمية الغرامنت هي نفس تسمية عاصمتهم، والتي تنطق بلغتهم بلفظ تعرمة Tagharma وغرمة Garama في اللغة اليونانية واللاتينية، وتسمى حاليا جرمة Djerma، تقع في الجنوب الليبي على بعد 80 كلم من الشمال الغربي لمرزوق Mourzouk<sup>(8)</sup>، والمدينة الأثرية القديمة تبعد بحوالي كيلومترين شمال المدينة الحالية، وتضم خرائب تؤرخ لجميع الفترات الزمنية التي مرت بها العاصمة منذ نشأتها حتى الفتح العربي للمنطقة، حيث تضم بنايات بطابع صحراوي، وبنايات رومانية، وقبور وأدوات مستعملة، وهي كثيرة إذ عثر سنة 1933م على 60 ألف قبر بضواحي المدينة، وهو ما يؤكد أنها كانت مدينة ذات أهمية كبيرة في الصحراء الكبرى.<sup>(9)</sup>

2- تأسيس مدينة غرمة: رغم أن الكثير من المصادر قد تحدثت عن حاضرة الغرامنت في العهد الروماني، إلا أن ذلك لا يعني أن المدينة العاصمة تأسست بمجيئ الرومان، بل هي سابقة للفترة الرومانية بقرون عديدة؛ فالإكتشافات الأثرية للمدينة بينت وجود بنايات ترجع إلى الألف الأولى قبل الميلاد أي إلى الفترة التي عرفت فيها سواحل شمال إفريقيا التواجد القرطاجي، وحتى مملكة الغرامنت قديمة وهي أقدم من القرن الخامس قبل الميلاد، هذه الفترة الأخيرة التي يتحدث فيها هيروودوت عن مطاردة الغرامنت لجيرانهم الإثيوبيين بهدف إخضاعهم لسلطانهم<sup>(10)</sup>، والحملات العسكرية الرومانية المتكررة على مدينة غرمة بداية من القرن الأول قبل الميلاد حيث تكتب المصادر

عن حملة القائد الروماني كرونليوس بالبيوس Cornelius Balbus في فترة حكم الإمبراطور أغسطس، وحملة سبتيوس فلاكوس Septimius Flaccus وجولينيوس مارتينيوس Julis Maternus في فترة حكم الإمبراطور دوميسيان Domitien سنة 86 و 87 قبل الميلاد.

هذه الحملات ماهي إلا حملات استكشافية تهدف إلى التعرف على الطرق والقبائل الصحراوية، ومن ثم الاستيلاء على مدينة غرمة التي يعنى الاستيلاء عليها التحكم في الطرق التجارية الكبرى بين شمال القارة الإفريقية وجنوبها، وهو ما تجسد فعليا في عهد الإمبراطور ذو الأصل الإفريقي سبتيوس سيفيريوس Sptime Severe حيث أحكم السيطرة على الطرق التجارية بتشييد الحصون العسكرية وتشديد الحراسة عليها<sup>(11)</sup>.

3- النظام السياسي في مملكة الغرامنت: لم تصلنا من المصادر القديمة معلومات كثيرة عن نظام الحكم عند الغرامنت، إلا أنه يمكن أن نستنتج وجود نظام ملكي وراثي على أساس أن هيرودوت أشار إلى وجود ملك يحكم هذا الشعب<sup>(12)</sup>، وحتى المصادر الرومانية تتحدث عن وجود نظام ملكي، إذ تشير إلى أن الثائر النوميدي تاكفاريناس طلب مساعدة ملك الغرامنت في حربه ضد الرومان، وأن هذا الأخير وفر الدعم المعنوي والعتاد العسكري من مشاة وفرسان<sup>(13)</sup>، وهكذا فإن للغرامنت نظام حكم ملكي عرفوه حتى قبل مجئ الرومان، وبالتالي كانت الحياة السياسية منظمة عندهم، وأهم لم يكونوا بمنأى عن التطور السياسي الذي عرفته الشعوب المتحضرة في العالم القديم<sup>(14)</sup>.

4- الحياة الاقتصادية عند الغرامنت: عرف الغرامنت الزراعة منذ وقت طويل فقد أشار المؤرخ اليوناني هيرودوت إلى أسلوبهم في الزراعة من حيث أنهم يقومون بمد طبقات من التربة فوق الملح، ثم يتم نثر البذور عليها<sup>(15)</sup>، وتدلل ممارسة حرفة الزراعة إلى وجود شعب مستقر؛ فقد كانت الزراعة من أبرز إنجازات الإنسان على مرّ العصور، وتعتبر معيارا أساسيا لدخول الإنسان العصر النيوليتي، ووجود الزراعة في المناطق الصحراوية دليل آخر على أن الصحراء الكبرى في القديم لم تكن بمنعزل عن التطورات الحضارية الحاصلة في العالم القديم، وقد حول الغرامنت مناطق صحراوية قاحلة إلى واحات غرست فيها النخيل والخضر والفواكه<sup>(16)</sup>، بفضل اعتمادهم على المياه الباطنية واستغلالها استغلالا علميا إذ أثبتت الدراسات الأثرية التي أقيمت في ضواحي مدينة فزان وجود شبكة واسعة من جداول المياه تنقل إلى الأراضي الزراعية، وهذه الشبكة شبيهة إلى حد كبير بما يعرف في يومنا هذا بالفقارة<sup>(17)</sup>.

ولم تقتصر حياة الغرامنت المعيشية على الزراعة بل مارسوا حرفة الرعي؛ فاهتموا بتربية الأحصنة والأبقار والمواشي، والاستفادة منها في التغذية والصناعات الجلدية، وتشتهر منطقتهم ذات الطبيعة الرعوية بوجود مساحات واسعة تستغل للرعي<sup>(18)</sup>.

أما التجارة فقد كانت أبرز نشاط ميز بلاد الغرامنت فقد كانوا وسطاء تجاريين بين شمال القارة وجنوبها؛ وتحكموا في الطرق التجارية، وكانت الموارد التجارية هي العامل الرئيسي الذي أدى إلى ازدهار عاصمتهم غرمة وثراءها<sup>(19)</sup>، فقد كان للغرامنت علاقات تجارية مع الفنيقيين منذ القرن التاسع قبل الميلاد، كما أن الرومان أدركوا أهمية بلاد الغرامنت التجارية لذلك توسعوا في إنشاء خط الليمس، ووصلوا إلى الواحات الصحراوية لأغراض عسكرية واقتصادية<sup>(20)</sup> وبالضبط فقد مارس الغرامنت تجارة العبور حيث كانوا وسطاء تجاريين ينقلون من الجنوب الذهب والعاج والجلود وحتى التمور سواء لصالح القرطاجيين أو الرومان فيما بعد<sup>(21)</sup>، كما تاجر الغرامنت بالعبيد الذين جلبوهم من بلاد الإثيوبيين، ثم ينقلوهم إلى المدن في شمال البحر الأبيض المتوسط لاستغلالهم في الزراعة والصناعة والتجارة ومختلف الحرف<sup>(22)</sup>، كما قام الغرامنت أيضا بنقل الحيوانات المصطادة في أدغال إفريقيا كالأسود والنمور والفيلة والزرافات.. ألخ للرومان من أجل استخدامها في حفلات السيرك<sup>(23)</sup>.

ويعود السبب في ازدهار التجارة في بلاد الغرامنت إلى استعمالهم لعربات تجرها أربعة أحصنة كما ورد عند المؤرخ اليوناني هيروودوت<sup>(24)</sup>، كما نجد رسوم هذه العربات بوفرة في الرسوم الصخرية الموجودة بالصحراء الكبرى مما أدى إلى ازدهار التجارة بكامل الطرق التي تؤدي إلى الصحراء الكبرى باستثناء الطريق التجاري المحاذي للمحيط الأطلسي الذي لم يكن له أية أهمية في المصادر القديمة<sup>(25)</sup>.

5- مظاهر العمران في مدينة غرمة: جاءت الاكتشافات متأخرة حول حضارة الغرامنت في الصحراء الكبرى فهي لم تبدأ إلا في سنة 1822م من قبل المستكشف الاسكتلندي ولتر أويبي الذي لاحظ وجود العديد من القبور والمباني، غير أن مجموعة من الايطاليين هم الذين شرعوا في كشف النقاب عن هذه الحضارة منذ سنة 1930م، وقاموا بمسح شامل لبلاد الغرامنت التي تمتد على طول 800 كلم شرق غرب، وعرض 500 كلم شمال جنوب<sup>(26)</sup>.

ومن خلال تلك الدراسات التي قام بها الايطاليين من 1930-1935م، وبخاصة الأعمال التي قام بها جورج كابتو ويرجي كشفت اللثام عن وجود مدينة في قلب الصحراء الكبرى، وأثبتت

الفرضية العامة بأن أصل تسمية الغرامنت معناه: شعوب المساكن؛ حيث نرى العديد من البنايات المختلفة والقبور التي عثر عليها في عاصمة الغرامنت وضواحيها مما يدل على وجود مدينة بكل مقاييس التمدن في العالم القديم<sup>(27)</sup>.

ثم توالت الاكتشافات في المنطقة في السنوات الموالية نظرا لأهمية وتعدد اللقى الأثرية بها، وكمثال على ذلك أبحاث العالم شارل دانيال الميدانية من 1960-1970م، وفالي سيرفي من 1979-1989م، وأعطت هذه الاكتشافات دفعة قوية لاكتشاف حضارة قامت في الصحراء الكبرى رغم أن ذلك لم يغطي كل ما تزخر به هذه المنطقة من آثار متنوعة<sup>(28)</sup>.

لقد أثبتت الاكتشافات في صورتها العامة وجود دولة قائمة في الصحراء على مساحة شاسعة حددها الباحث الأثري دافيد ماتنجلي بحوالي 300 ألف كلم مربع<sup>(29)</sup>، وهذه المساحة يبدو أنه ليس مبالغ فيها مقارنة مع حجم السكان في تلك المنطقة؛ فمن خلال دراسة القبور اكتشف الباحثين الإيطاليين حوالي 60 ألف قبر في قلب حضارة الغرامنت فقط مما يدل على أهمية بلادهم ودورها في التجارة العابرة من وإلى الصحراء<sup>(30)</sup>.

وتتميز المنشآت المعمارية بحضرة الغرامنت وضواحيها بتنوعها نتيجة لوجود العديد من الحضارات التي أثرت على طابعها بدءا بالقرطاجية والإغريقية والرومانية، ولكن الكثير منها يشبه الطابع النوميدي مثل ما هو موجود من آثار معمارية في مدينتي باتنة وتيبازة<sup>(31)</sup>.

وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها في القرنين الأول والثاني الميلاديين حتى أن الجغرافي الإغريقي كلود بطليموس - القرن الثاني الميلادي - صنفها ضمن الحواضر الكبرى الموجودة في عصره<sup>(32)</sup>.



منظر لمدينة غرمة المصدر: الهيئة العامة للسياحة للبيبة



منظر عام لمدينة غرمة القديمة المصدر: الهيئة العامة للسياحة الليبية

6- السكان والمجتمع: ترجع أصول شعب الغرامنت إلى قبائل "التحنو" و"الليبو" التي تحدثت عنها المصادر الفرعونية منذ سنة 3200 قبل الميلاد، وهي قبائل كانت تمارس رعي الماشية بجوارهم، وتميزت هذه القبائل الأمازيغية بنفس صفات الفراعنة من حيث الرسوم الجدارية وطريقة الملابس والديانة وحتى تشابه ملامح الوجه<sup>(33)</sup> حسب الباحث الفرنسي المختص في تاريخ المغرب القديم - غابريال كامبس - فإن شعب الغرامنت ينتمي اثنيا إلى مجموعة الشعوب ذات البشرة السمراء، وهي وسط بين الشعوب المتوسطية ذات البشرة البيضاء في شمال القارة والشعوب الإثيوبية ذات البشرة السوداء في وسط وجنوب القارة الإفريقية، ولكن الغرامنت بكل تأكيد هم من الشعوب الليبية (الأمازيغية) المكونة للأعراق في المغرب القديم<sup>(34)</sup>.

وقد توصل الباحث في الأنثروبولوجيا الإيطالي سيرجيو إلى التعرف على الكثير من الخصائص السكانية لحضارة الغرامنت، ومن أهم ما توصل إليه أن هذه الحضارة كانت تسكنها مجموعة من الشعوب غلبت عليها الشعوب المتوسطية ونسبة كبيرة من الأفارقة الزنوج، مع أنه حصل اختلاط كبير عن طريق التزاوج بين الأجناس المتوسطية والأجناس الإفريقية، وهذه الملاحظة توجد أيضا عند الباحثين في دراسات الرسوم الصخرية<sup>(35)</sup>.

**خاتمة:** من خلال هذه الإطلالة الموجزة على أحوال شعب الغرامنت وقيام عاصمتهم في قلب الصحراء الكبرى أمكننا الخروج بالعديد من النتائج أهمها:

1- لم تكن الصحراء الكبرى في العصور القديمة مكانا خاليا من مناطق التجمعات الحضارية الكبرى، وهو ما ينطبق على مدينة غرمة عاصمة الغرامنت كإحدى أكبر التجمعات المدنية في الصحراء الكبرى وشمال إفريقيا.

2- لقد سبقت الحضارة والتمدن في الصحراء الكبرى الوجود الروماني، فقد كانت مدينة غرمة مدينة مزدهرة حضاريا منذ العهد القرطاجي معتمدة في ثراءها على التحكم في الطرق التجارية العابرة إلى جنوب القارة الإفريقية، وبالتالي لا مجال للقول بأن التمدن في الصحراء الكبرى ارتبط بالوجود الروماني.

3- كان لشعوب الصحراء الكبرى في القديم علاقات قوية مع الحضارات الكبرى؛ فقد انفتحو عليها، وكانوا قادرين على ربط علاقات مع الشعوب خارج اطارهم الجغرافي، وتعاملوا تجاريا مع القرطاجيين والإغريق والعرب والرومان والأثيوبيين.

4- ينبغي أن نتخلى عن الفكرة العامة التي تقول أن شعب الغرامنت هو شعب بدوي ظل يتنقل في الصحراء الكبرى من أقصاها إلى أقصاها، ونؤمن بفكرة جديدة هي أن الغرامنت بالرغم من اشتغالهم بالبادوة إلا أنهم تمكنوا من تأسيس حضارة بمفهومها الواسع؛ فقد مارسوا الزراعة والتجارة، وشيدوا المباني المختلفة، وكان لهم نظام ملكي، كما يعود لهم الفضل في الحفاظ على الثقافات الإفريقية، وكانوا أصلا وسطاء بين الحضارات المتوسطة والحضارات الإفريقية.

5- تعتبر مدينة غرمة إحدى نماذج التمدن في الصحراء الكبرى رغم قساوة الظروف الطبيعية والمناخية، وهذا ما يدل على تفاعل الإنسان الصحراوي القديم مع محيطه.

6- يمكن القول أن الإطار الجغرافي والتاريخي لحضارة الغرامنت لا يقتصر على وجودهم في الصحراء الليبية بل إن مناطقهم كانت تشمل معظم أنحاء الصحراء الكبرى، وامتد حتى مناطق الساحل المعروفة حاليا ببلاد السودان.

**الهوامش:**

1- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، أبوظبي، المجمع الثقافي، 2001م، الكتاب الرابع، ص، 364.

2- نفسه، الكتاب الرابع، ص، 369.

3-strabon, Géographie, XVII, 3.

4- Histoire naturelle, 5. pline L'ANCIEN,

5-Marcel Baudin, Hommes voile et femme libers : les Touarge, paris, harmattan, 2008, p, 61.

6-ibid, p, 67.

7-pierre pinta, Libye, Des cites antiques aux oasis du Sahara, Geneve,Olizana, 2edit,2007, p,p, 64,65.

8- Marcel Baudin , op cit, p, 61 .

9-Danielle Bisson, La Libye: Identité libyenne, Paris, Harmattane, 1999,p,200.

10-op cit, p, 180. pierre pinta,



- 11-Domination romaine dans le sud de l'Afrique septentrionale, Revue Africaine, Paris, Librairie edition, Num 13, Octobre, 1858, p, 388, 389.
- 12- هيرودوت، المصدر السابق، ص، 369.
- 13-Guillaume Thomas, Francois Raynal, Histoire universelle, Amsterdame, Arkstée et Merkus, Tom 2, 1751, p, 413.
- 14- Marcel Baudin, op cit , p, 67.
- 15- هيرودوت، المصدر السابق، ص، 364.
- 16-pierre pinta, op cit , p, 46.
- 17-Claude Alian Saby, Les Garamantes, Servimedia edit, 2008, p, 13.
- 18-pierre pinta, op cit , p, 184.
- 19-G.Mokhtar, Histoire generale de l'Afrique, Paris, Unesco, 1987, p, 385.
- 20- pierre pinta, op cit , p, 63-65.
- 21-Histoire générale de l'Afrique, Volume 2, Par UNESCO, Comité scientifique international pour la rédaction d' une Histoire générale de l 'Afrique, 1984, p, 488.
- 22 -Claude Alian Saby, op cit, p, 487, 488.
- 23-Michel Kaplan, L'Afrique Romaine, de l'Atlantique a la Tripolitaine 69-439 apr j.c, Breal, 2006, p, 86.
- 24- هيرودوت، المصدر السابق، ص، 364.
- 25- جمال مختار، تاريخ أفريقيا العام، اليونيسكو، دون سنة، م، 2، ص، 544.
- 26-Robin Segalas, Rome et l'Afrique presaharienne, univ-de Pau de l'Adour, 2010, pp, 70, 71.
- 27-Claude Alian, op cit , p, 11.
- 28-Robin Segalas, op cit , p, 71.
- 29-ibid, p, 71.
- 30-Découverte Libye, guide Olizane, édit Olizane, Genève, 2007, p, 183
- 31-1988 , p, 95. Libya antiqua, Presses Universitaires de France, l'Unesco à Paris
- 32-Découverte Libye, op cit, p, 183.
- 33-Ginette Aumassip, Entre Adrar des ifoghas, Tassil et Air, institut de paleontologie, Paris, 1993, p, 95.
- 34-Gabriel Camps, Les Garamantes, conducteurs de chars et bâtisseurs dans le Fezzan antique, Copyright Cléo, 2002, p, 01.
- 35-ibid, p, 02.

**Abstract:** Different peoples of the ancient Sahara, one of the Garamantes was certainly the largest, most powerful and also the most advanced. The heart of this civilization was in de l'actuelle southern Libya, near the mountains of Fezzan. It is no exaggeration to say that there existed une culture garamantique fed a trans-Saharan trade which provided the relations between north paysdu impregnated Mediterranean civilizations and southern savannah where houses African cultures.

The name of Garam means "people of the house", The many ruins of Wadi El-Agial Show in favor of this hypothesis. Herodotus cites Garamantians among peoples living inside Libya

and is their country thirty days from the Mediterranean. Tite Livy and Strabo place vaguely Garamantians near Emporia Little Sirte. They range from Gétules north and south Ethiopians.

At the beginning of our era, the Roman Empire was expanding and rich colonies in Africa-that is to say North Africa - had to be pacified and protected. In 20 J.C. before the proconsul of Africa L. Cornelius Balbus went to conquer the country Garamantian and captured its capital Garama today Gera.

The valley of Wadi El-Agial is extraordinarily rich in tombs of various types. Italian archaeologists have counted, necropolis by cemetery, 59,680 graves.